

الفخار والخزف الإسلامي من خلال الحفريات الوقائية بمدينة بجاية Islamic pottery and ceramics through the preventive excavation in Bejaia

د. / رابح أرول

المركز الوطني للبحث في علم الآثار، تيبازة

البريد الإلكتروني المهني: arroul.r@cnra.dz

الملخص:

تعتبر المكتشفات الفخارية والخزفية من أبرز اللقى وأكثرها انتشارا في المواقع الأثرية عامة، وهذا دليل على كثرة استعمالها في شتى مجالات الحياة اليومية للإنسان في مختلف محطات الحضارية، بداية من فترة فجر التاريخ إلى يومنا هذا. من خلال اللقى الأثرية التي يمكن أن نلاحظها سواء في المواقع الأثرية أو المتاحف، يتبين لنا مدى مساهمة هذه الصناعة في التطور الحضاري للشعوب، سواء من الناحية المادية أو الصناعية أو الفنية أو الاقتصادية، كما تبين لنا مدى سيطرة الإنسان على مكونات هذه المادة لتحويلها من مادة خام إلى منتجات فنية راقية.

سنعرض في هذا المقال الموسوم بـ: "الفخار والخزف الإسلامي من خلال الحفريات الوقائية بمدينة بجاية" بعض النتائج المتوصل إليها بهذا الموقع في حفريات شهر جوان 2022م، وهذا من خلال دراسة اللقى الفخارية والخزفية التي تعود للفترة الإسلامية المكتشفة به.

الكلمات المفتاحية: الحفريات، البحث الأثري، علم الآثار الوقائي، الفخار، الخزف، الفترة الإسلامية، بجاية.

Abstract:

Pottery and ceramic discoveries are among the most prominent and widespread in archaeological sites. This is evidence of their frequent use in various areas of human life in various cultural stations, from the dawn of history to the present day. Through the archaeological encounter we can observe both in archaeological sites and museums, the extent to which this industry contributes to the cultural development of peoples, whether in material, industrial, artistic or economic terms, as well as the extent to which humans control the components of this material to transform it from raw material into high-end artistic products.

In this article, marked "Islamic pottery and ceramics through the preventive fossil in the city of Bejaia", we will present some of the results reached at this site in the excavation of the month of June 2022. This is through the study of the pottery and ceramic discovered, meeting that dates back to the Islamic period.

Keywords: archaeological frisking; archaeological research, preventive archaeology, pottery, ceramics, Islamic period, Bejaia.

مقدمة:

تعتبر حفرة بجاية نموذج من بين المشاريع الوطنية لحماية التراث الثقافي للجزائر، التي يشرف عليها فريق بحث ينتمي إلى المركز الوطني للبحث في علم الآثار برئاسة الدكتور الياس عريفي والتي اسفرت على مجموعة من المكتشفات الاثرية القيمة، بحكم عضويتي في المشروع ارتأيت تقديم هذا المداخل حول الفخار والخزف الإسلامي من خلال الحفرة الوقائية بمدينة بجاية، والتي سنحاول من خلالها توضيح أهمية هذا النوع من المكتشفات الاثرية ودورها في دراسة المجتمع من الناحية الثقافية والاجتماعية والصناعية؟ وسبل التعامل مع هذا النوع من المكتشفات؟ بالإضافة إلى توضيح دور التكنولوجيا الحديثة في مثل هذه الدراسات.

1. نطاق الاكتشاف:

ينحصر المجال الجغرافي للموقع داخل النسيج العمراني القديم لمدينة بجاية بين دوائر العرض: 17°، 36°، 45° شمالاً، وخطوط الطول 5°، 65°، 511° شرقاً، وهذا وفق إحداثيات لامبار، ويبلغ ارتفاعه حوالي 50 متراً على مستوى سطح البحر.

تتدرج عملية التدخل ضمن حفرة أثرية وقائية، وهذا لكون الموقع يقع ضمن مشروع بناء مجمع سكني يحمل اسم إقامة المنصور، تبلغ مساحته الإجمالية 1000م².

تم إجراء التنقيب الأثري موازاة مع أعمال انجاز المشروع السكني على مساحة تقدر بـ: 100م²، وهذا بطريقة عمودية بوضع سقالات (Echafaudages) قصد تسهيل عملية الحفر وإزالة طبقات التراب المتراكمة الهياكل المعمارية للموقع¹ (الصورة 01).



الصورة 01: الشروع في عملية التنقيب باستخدام السقالات. عن: ARIFI, L., ; Autres, Juillet 2022.

¹ - ARIFI, L., ; Autres, Juillet 2022.

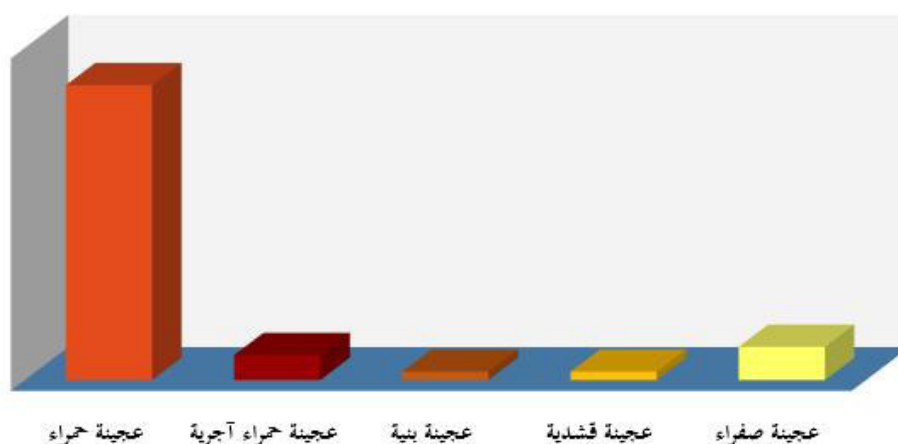
2. عينة الدراسة :

أسفرت عملية التنقيب الأولى على مجموعة معتبرة من الشقف الفخارية والخزفية الإسلامية التي تعود إلى الفترة الحمادية، تنوعت بين الفخار والخزف وبين الألوان والعناصر المعمارية والتي اخترنا منها عينة للدراسة.

3. الخصائص الصناعية والفنية لعينة الدراسة :

1.3 أنواع العجائن المستعملة :

نلاحظ من خلال المجموعة الفخارية والخزفية المكتشفة بموقع مدينة بجاية استعمال العجينة الحمراء وكذا العجينة البيضاء (الشكل 01)، مع الإشارة إلى أن العجينة ذات اللون الأحمر بمختلف تدرجاتها هي الغالبة في تشكيل هذه الأواني، فقد تنوعت بين الأحمر بنسبة عالية جداً، ثم العجينة الحمراء الآجورية بنسبة قليلة، تليها العجينة ذات اللون البني بنسبة أقل. يمكن إرجاع السبب الرئيسي للاستعمال الواسع للعجينة الحمراء ربما إلى طبيعة المنطقة.



الشكل 01: أعمدة بيانية تمثل نسب ألوان العجائن المستعملة في تشكيل الفخاريات والخزفيات المكتشفة بالحفريات الإنقاذية بمدينة بجاية 2022. عن: الباحث.

يصنف هذا النوع من العجائن ضمن العجينة الطينية، وهي توجد عادة على سطح الأرض أو على عمق صغير منه، وعادة ما تكون ذات لون أحمر لاحتوائها على نسبة عالية من المعادن الطينية كأكسيد الحديد، كما يمكن أن تضاف عناصر أخرى لهذه العجينة كالجير أو الرمل مثلاً بهدف تسهيل عملية التشكيل وطرح

الماء أثناء مرحلة التجفيف. تتميز هذه العجينة بالنفاذية والصلابة، وتتكون في مجملها من السيليس نسبة تتراوح بين 35% و 65%².

أما العجينة ذات اللون الفاتح فقد لحظنا استعمالها من خلال مجموعة قليلة من القطع الفخارية والخزفية المكتشفة بالموقع. وقد تنوعت بين العجينة الصفراء والعجينة القشدية، هذه الأخيرة استعملت بنسبة قليلة مقارنة بالعجينة الصفراء.

تعتبر هذه العجينة طينة صلصالية بحيث تتكون أساسا من السيليس والرمل الكوارتزي وتعتبر طينتها جد مرنة لهذا غالبا ما يتم تحضيرها اصطناعيا وذلك بإضافة مواد ماسكة، فتصبح بشكل هيكل جد متطور من حبيبات الكوارتز أو الكريستوباليت Cristobalite الاسمنتي، يميل لون هذه العجينة بين اللون الأبيض والرمادي وتكون عادة ذات نسيج رملي رفيع صلب مما يجعل تمددها مقارنة بالعجينة الطينية جد مرتفع بسبب احتوائها على نسبة عالية من السيليس والتي تتراوح بين 85% و 92%³.

3. 2. أنواع الفخار والخزف عينة الدراسة:

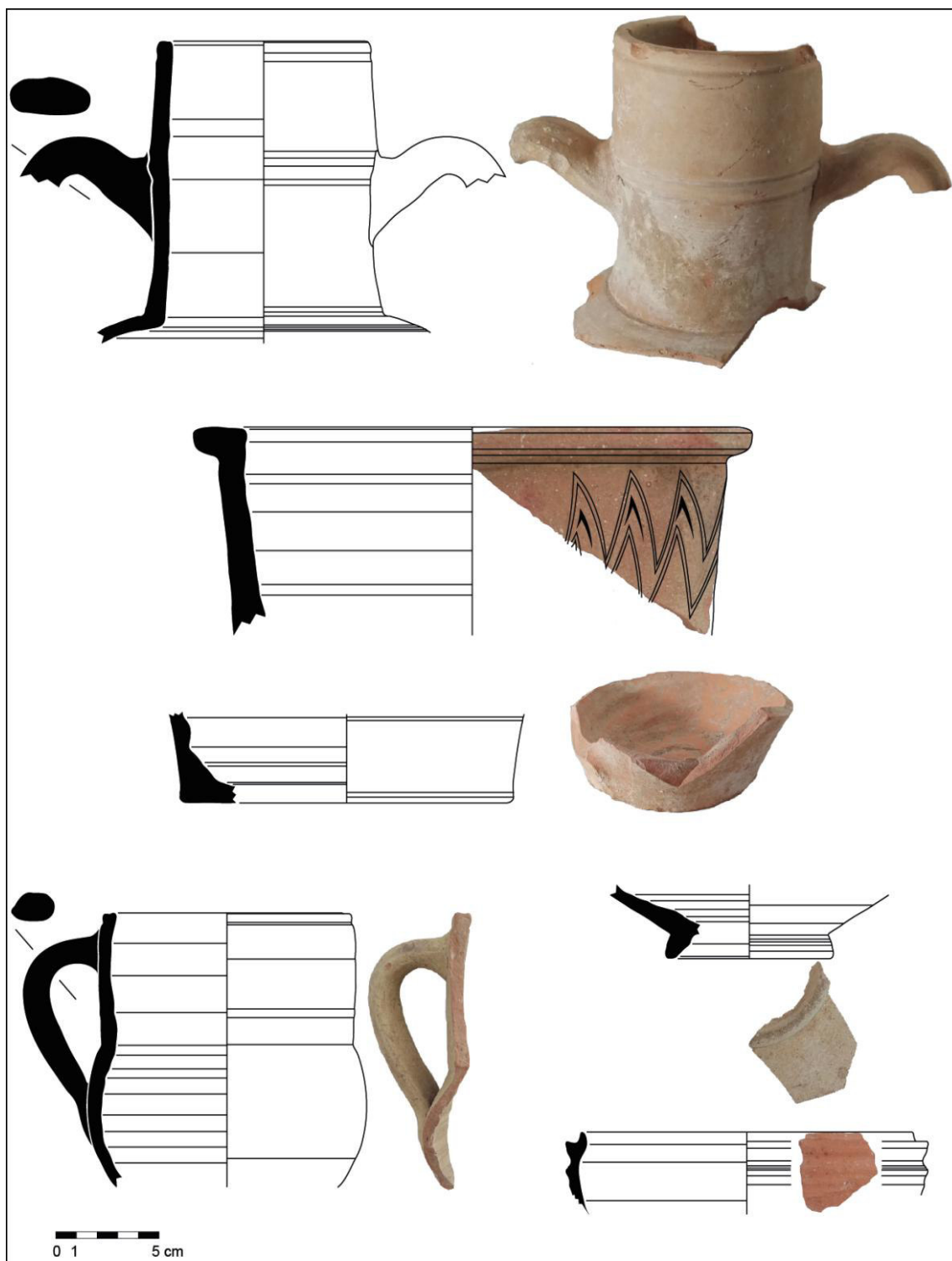
3. 1. 2. الفخار العادي:

يمثل الفخاريات الخالية من الأكاسيد الملونة⁴، وقد شمل هذا النوع الأواني الفخارية الموجهة لغرض الحفظ والتخزين، إضافة إلى أواني التقديم (اللوحتين 01 و 02).

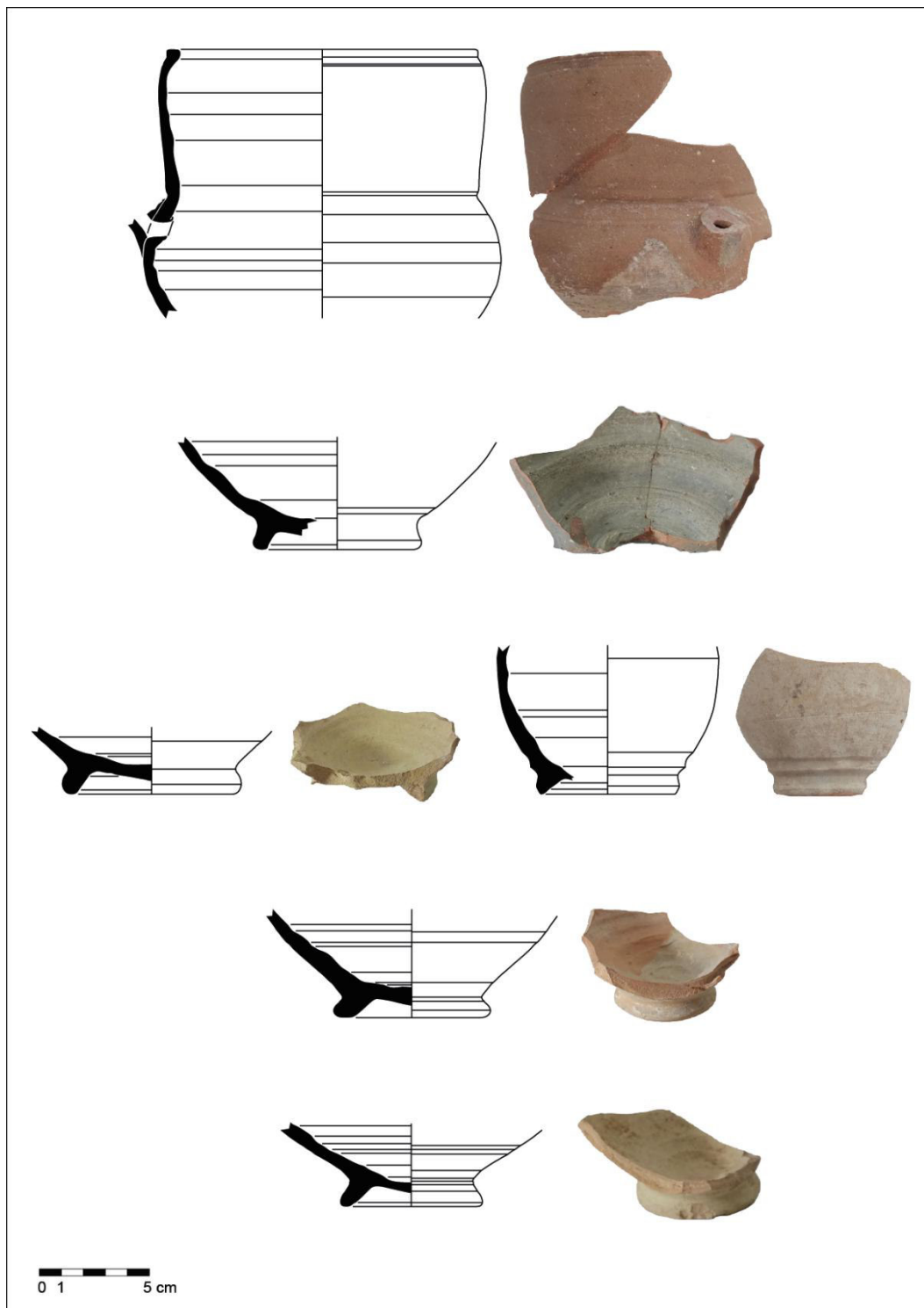
² - SOUSTIEL, J., 1985, p. 367.

³ - Ibid.

⁴ - SAUVAGET, J., 1996, p. 42.



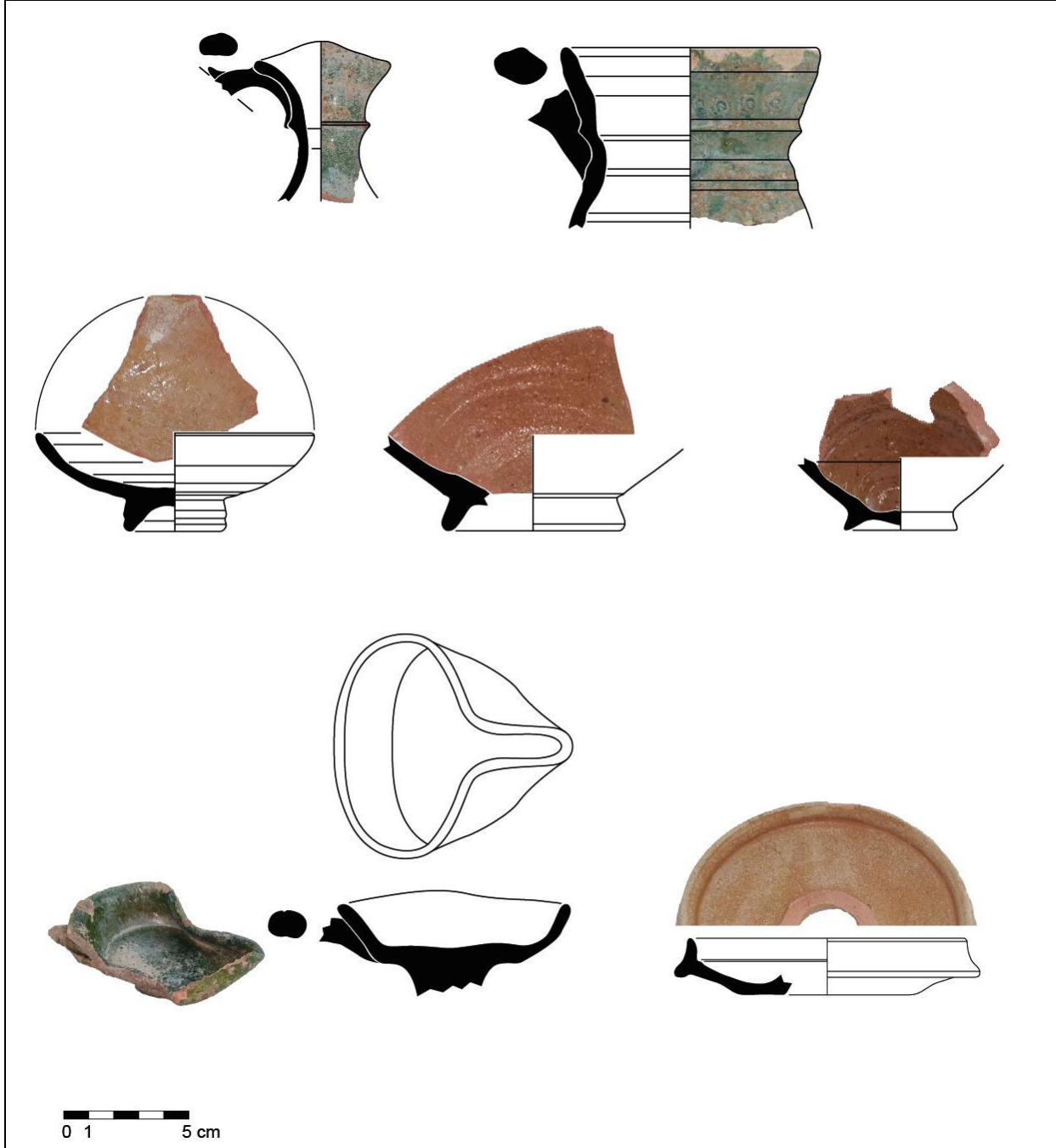
اللوحة 01: نماذج من الأواني الفخار العادي المكتشفة بالحفرية الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.



اللوحة 02: نماذج من الأواني الفخار العادي المكتشفة بالحفريات الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

3. 2.2. خزف أحادي اللون⁵:

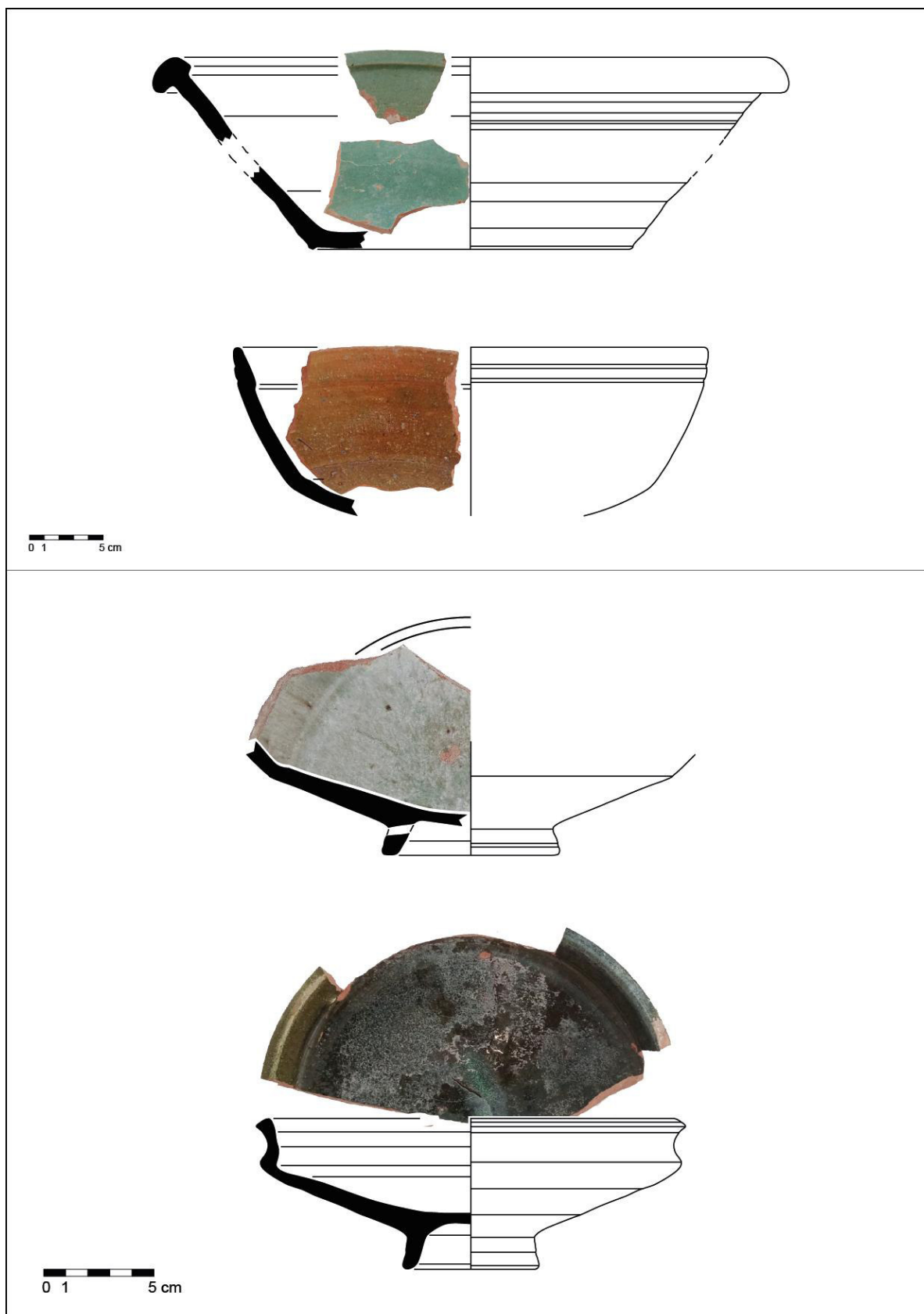
يمثل هذا النوع من الخزفيات كل أنواع الأواني الفخارية التي يتم إضافة طبقة من الطلاء القاتم والمصنوع من مختلف الأكاسيد الملونة، تحت طلاء زجاجي شفاف⁶. (اللوحتين 03 و 04)



اللوحة 03: نماذج من الخزفيات أحادية اللون المكتشفة بالحفرية الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

⁵ - SAUVAGET, J., 1996, p. 42.

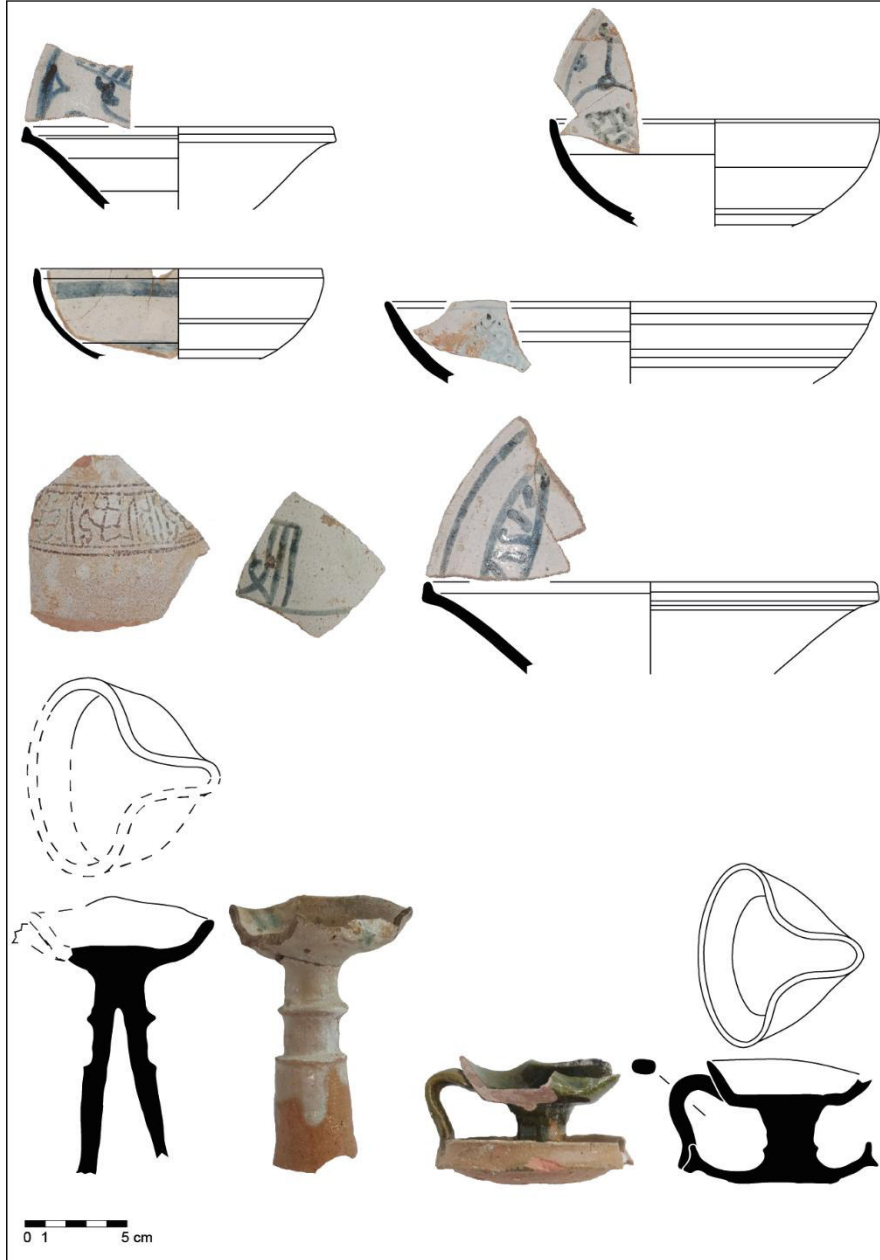
⁶ - سحنون توفيق، 2017م-2018م، ص. 121.



اللوحة 04: نماذج من الخزفيات أحادية اللون المكتشفة بالحفريات الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

3. 3. 2. خزف ثنائي الألوان⁷:

يمثل هذا النوع من الخزفيات كل أنواع الأواني الفخارية التي يتم إضافة طبقة من الطلائين بلون قاتم والمصنوع من مختلف الأكاسيد الملونة، تحت طلاء زجاجي شفاف.

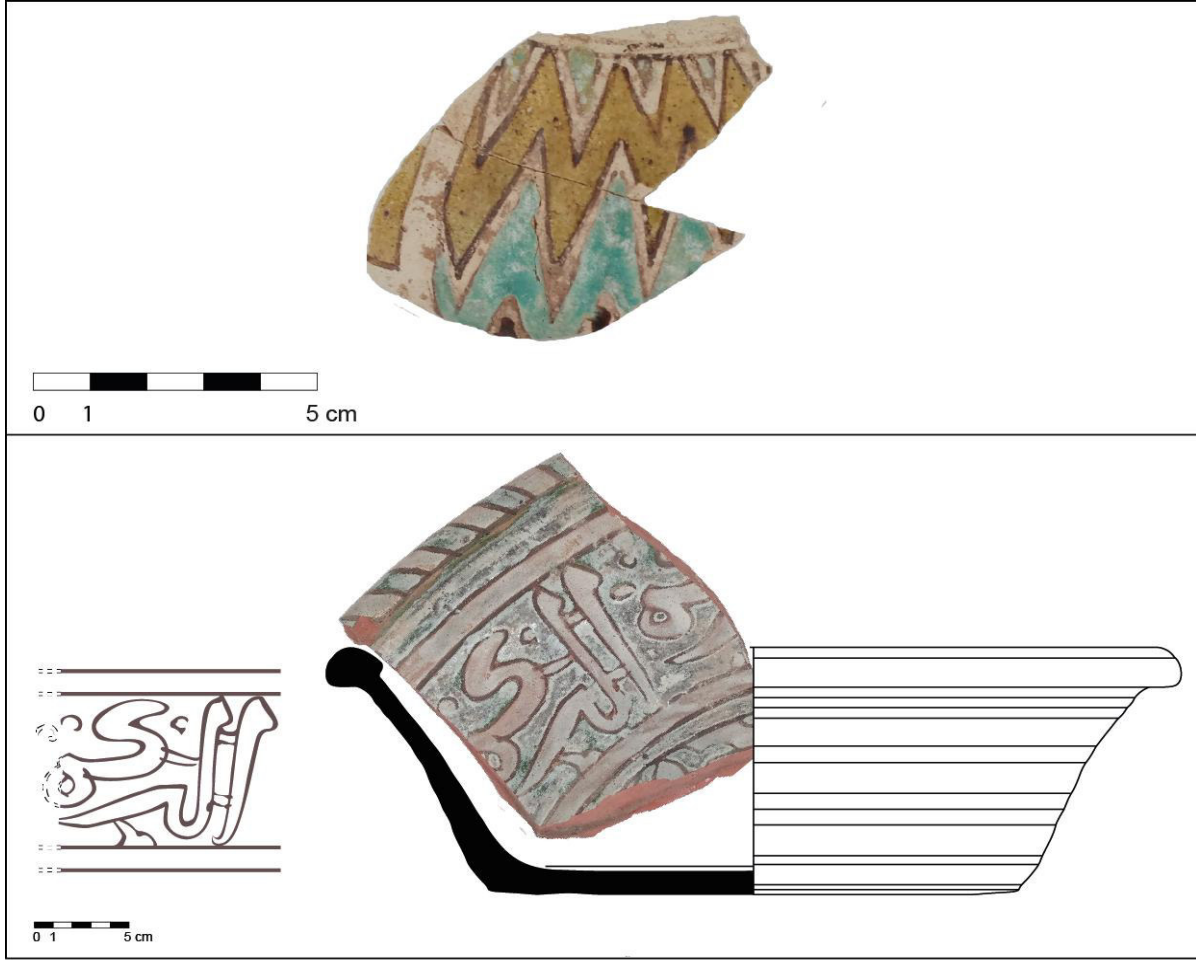


اللوحة 05: نماذج من الخزفيات الثنائية الألوان المكتشفة بالحفريات الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

⁷ - SAUVAGET, J., 1996, p. 42.

3. 4.2. خزف متعدد الألوان⁸:

يمثل هذا النوع من الخزفيات كل أنواع الأواني الفخارية التي يتم إضافة طبقة من طلاءات متعددة الألوان القاتمة والمصنوع من مختلف الأكاسيد الملونة، تحت طلاء زجاجي شفاف.



اللوحة 06: نماذج من الخزفيات المتعددة الألوان المكتشفة بالحفريات الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

4. تقنيات التشكيل: من خلال الفخاريات والخزفيات المكتشفة،

1.4. أواني مشكلة باليد:

تعتبر تقنية التشكيل باليد أقدم طريقة اعتمدها الفخاري في تشكيل الأواني الفخارية، وهذا راجع إلى أن الإنسان في تلك الفترة لم تكن لديه الوسائل والمعدات اللازمة لتشكيل أواني ذات شكل متجانس⁹. بقيت طريقة التشكيل اليدوي واسعة الاستعمال إلى يومنا هذا وهو ما نلاحظه على الفخار التقليدي الخاص بعديد القرى والأرياف الجزائرية كمنطقة الأوراس، ومنطقة القبائل، ومنطقة شنوة بولاية تيبازة مثلا¹⁰.

⁸ - SAUVAGET, J., 1996, p. 42.

⁹ - محمد الطيب عقاب، 1984م، ص ص. 45-46.

¹⁰ - رابح أرول، 2020م-2021م، ص. 42.

بالنسبة للعينه المدروسة نلاحظ أن تقنية التشكيل اليدوي قد اعتمدها الفخاري في تلك الفترة في تشكيل ماسك الأواني الموجهة لغرض الطهي، وكذا المقابض الخاصة بالمصابيح الزيتية أو ما يعرف باسم السراج¹¹ (الصورة 02).



الصورة 02: نماذج من ماسك ومقابض مشكلة باليد مكتشفة بالحفرية الإنقاذية بمدينة بجاية 2022م. عن: الباحث.

2.4. أواني مشكلة بالدولاب:

كانت هذه التقنية الأكثر استعمالا من طرف فخاري الحضارات القديمة، وقد ساهمت في إعطاء أشكال جديدة وأكثر تجانس، ومن مميزاتا أيضا أنها تساعد على إخراج أواني خفيفة الوزن مقارنة بالأواني المشكلة باليد والحبال الطينية.

بالنسبة للقى الفخارية والخزفية المكتشفة بحفرية بجاية، نلاحظ أن هذه التقنية هي السائدة في تشكيل كل الأواني مهما كانت وظيفتها وهذا يرجع إلى كون الدولاب وسيلة تضمن تشكيل عدد كبير من الأواني ذات الشكل المتجانس وفي فترة زمنية قصيرة، ولهذا فإن هذه التقنية تعتبر مكسبا تكنولوجيا متطورا، في صناعة الفخار، إذ وبحركة دورانية بسيطة ومستمرة، يمكن أن يشكل الفخاري الأواني التي يريد تشكيلها¹².

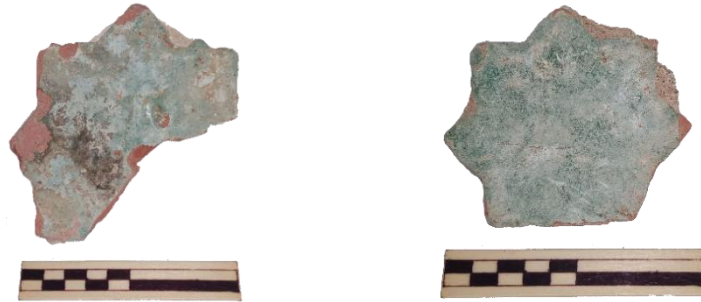
5. الخزف المعماري:

بالنسبة للخزف المعماري، فقد أسفرت الحفرية الإنقاذية بمدينة بجاية عن اكتشاف بلاطتين من الخزف ذو اللون الأخضر، تأخذان شكل النجمة الثمانية (الصورتين 03 و 04)، إذ يعتبر هذا النوع من البلاطات

¹¹ - توفيق سحنون؛ عز الدين بويحيوي، 2018م.

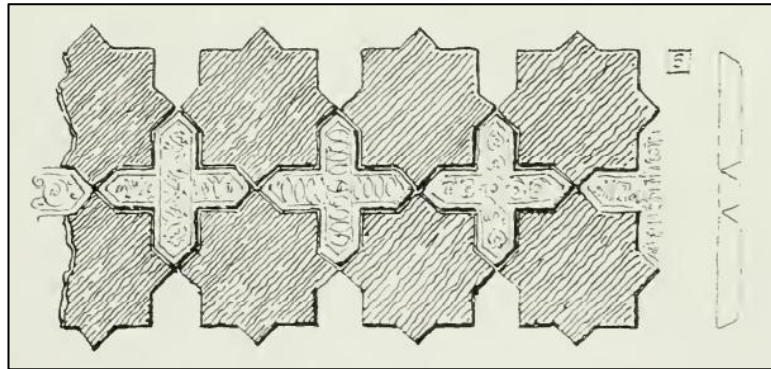
¹² - توفيق سحنون، 2017م-2018م، ص. 76.

الخرفية من أقدم العناصر المعمارية التي استعملت بالمغرب الأوسط خاصة في الفترة الحمادية (405هـ- 547هـ/1014م-1153م)¹³، بحيث عرفت قلعة بني حماد استعمالا واسعا لهذه التليطات ذلك انها استخدمت كبلطات أرضية تم تثبيتها عن طريق الرص، كما استعملها المعماري الحمادي كعنصر زخرفي في تغطية الجدران وذلك بتثبيتها عن طريق الملاط¹⁴ (الشكل 02).



الصورتان 03 و 04: بلاطتان خزفيتان على شكل نجمة ثمانية مكتشفتان بالحفريات الإنقاذية

بمدينة بجاية 2022م. عن: ARIFI, L., ; Autres, Juillet 2022.



الشكل 02: رسم تخطيطي يمثل استعمال البلاطات الخزفية بقلعة بني حماد.

عن: MARÇAIS, G., 1913.

6. النتائج ومناقشتها:

- تتميز منتجات هذه الفترة بكون أغلبها شكل من الطينة التي تضم في تركيبها الكلس مما جعلها تأخذ اللون الأبيض بكل تدرجاته اللونية بين الأبيض والأصفر والأصفر المخضر حتى اللون الأحمر الفاتح.

¹³ - عبد الرحمن الجيلالي، 1965م، ص. 275.

¹⁴ - MARÇAIS, G., 1913, p. 11.

- شكلت أغلب تحف هذه المرحلة بالدولاب كونها الطريقة المثلى والسريعة في إنتاج هذا النوع من الأدوات.
- تميزت الأواني الفخارية الحمادية بتنوعها الشامل، من الأواني البسيطة الخالية من العناصر الزخرفية إلى تلك التي أبدع فيها الفخاري المسلم في تلك الفترة سواء المنفذة أثناء عملية التشكيل كالحز والكشط أو تلك التي تكون بعد التجفيف كالطابع والتخريم أو بعد عملية الحرق كالرسم بالمغرة.
- خزفيات هذه الفترة تميزت البعض منها بطلاء أحادي ضم ألوان مختلفة منها اللون الأبيض، الأزرق، الأصفر والأخضر بكل تدرجاته اللونية وكان هو الميزة الغالبة على التحفة عينة الدراسة.
- في حين نجد أغلب القطع الخزفية الحمادية تضم زخارف ثنائية ومتعددة الألوان نفذت باللون البني والأخضر على أرضية بيضاء.
- تنوع المواضيع الزخرفية يعد هو الآخر مميزة من ميزات الخزف الحمادي خاصة منها الزخارف النباتية والهندسية.
- الزخارف الكتابية على الفخار والخزف الحمادي كلها نفذت بالخط الكوفي البسيط
- أدوات الانارة تميزت بالأشكال البسيطة جدا والطلاء الأخضر.
- قلة تصوير الكائنات الحية الحيوانية على الأواني الخزفية عينة الدراسة.
- انعدام الزخارف الكتابية.

الخلاصة:

الغاية من هذه الدراسة هي الحصول أكبر عدد من المعلومات حول أقدم حرفة عرفها الإنسان، وقد توصلنا إلى التعريف بمختلف الأشكال والنماذج التي خلفها قاطني مدينة بجاية في الفترة الإسلامية، والكشف عن بعض خصائصها الفنية والتي استطعنا أن نحكم على أن صناعة الفخار همزة وصل بين المدارس الفنية المشرقية والمحلية والأندلسية وهذا واضح من خلال المواضيع الخزفية التي نفذت على الأواني بصفة عامة.

قائمة الببليوغرافيا:

1. أروول رابح، 2020م-2021م، الفخار التقليدي في الوسط الزيفي الجزائري -دراسة حالات-، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الريفية والصحراوية غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر2.
2. الجيلالي عبد الرحمن، 1965م، تاريخ الجزائر العام، ج1، ط2، الجزائر.
3. سحنون توفيق، 2017م-2018م، تنميط الخزفيات الإسلامية للمغرب الأوسط من خلال المجموعات المتحفية الجزائرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر2.
4. سحنون توفيق؛ بويحيوي عز الدين، 2018م، "دراسة تنميطية للمسارح الحمادية نماذج قلعة بين حماد ق5هـ/11م"، مجلة منبر التراث الأثري، 7، 1، ص ص. 61-77.
5. عقاب محمد الطيب، 1984م، الأواني الفخارية الإسلامية، دراسة فنية مقارنة، الجزائر.
6. ARIFI, L. ; Autres = ARIFI, L. ; AMOKRANE, N. ; ARROUL, R. ; TIGHERMINE, K., 2022, Rapport sur la fouille archéologique Préventive effectuée à « Résidence El Mansour » wilaya de Bejaia, CNRA, Juillet.
7. MARÇAIS, G., 1913, Les poteries et faïences de la qalâ des beni hammâd (XI siècle), Contribution à l'étude de la céramique musulmane, Constantine.
8. SAUVAGET, J., 1996, Introduction à l'étude des céramiques musulmane, Extrait de la revue des études islamique, Paris.
9. SOUSTIEL, J., 1985, La Céramique Islamique, Paris.